دوافع الصليبيين السياسية والعسكرية والدينية للأغانى والأناشيد الدينية

الباحث/ عبد الشكور أحمد محمد العبد
إشراف
الأستاذ الدكتور/ إمام الشافعي محمد حمودي
الدكتور/ حسام حسن إسماعيل

الملخص:

تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على الدوافع التي أدت بالصليبيين إلى نظم الأغانى والأناشيد الدينية، وقد تنوعت هذه الدوافع، فكانت هناك الدوافع السياسية، والدوافع العسكرية، والدوافع الدينية. أما عن الدوافع السياسية فقد كانت فى مقدمة دوافع الصليبيين لنظم الأغانى والأناشيد، فقد كانت الحروب الصليبية لها تأثيرها الأدبى؛ حيث استوحاها بعض الشعراء فى كتابتهم؛ مما أدى إلى ازدهار الشعر الملحمى بحيث فاق غيره من المجالات الأدبية عند الأوروبيين. وأما عن الدوافع العسكرية، فلقد كان الصليبيون مقتنعون بأن الله اختارهم من بين كل البشر بالمهمة التى أخذوا على عاتقهم تنفيذها، فكانت تُنشد الأغانى والأناشيد فى المعارك؛ لتحميس الجنود على القتال ورفع الروح المعنوية لهم، وكان منها الملاحم الفرنسية المعروفة بالمآثر، وقد انتشرت فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبصفة خاصة فترة الحروب الصليبية ، ولقى الشيوع والرواج من كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات. وكانت القصائد التى تمدح أبطال الحملة الفرنسية تميل إلى الإشارة إلى كرمهم كرعاة ، وكذلك إلى مآثرهم الحربية.

أما عن الدوافع الدينية، فقد كان المجتمع الأوربي مجتمعاً متديناً حتى النخاع، وأصبح للدين فيه الدور الأول في كل نواحي الحياة تقريباً ، فكل نشاط على مستوي الفرد أو المجتمع لا بد وأن يرتبط بالدين بشكل أو بآخر، ويعد الدافع الديني هو الدافع الأساسي للحروب الصليبية لتخليص وإنقاذ المسيح وإنقاذ الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين، فجاءت الأغاني والأناشيد لتمثل هذه المعاني، من ذلك الأغنيات والأناشيد التي كانت ترفع معنويات الحجاج الصليبيين المسافرين إلى الأراضى المقدسة، وقد أخذت سلسلة الأقاصيص البطولية والأشعار تُطرح بالتداول على طول مختلف طرق التجارة ، وسبل الحجاج فى أوروبا، فكان الشعر من

أهم وسائل نشر الأيديولوجية الصليبية ، فقد كان الشعراء ينظمون كافة مواضيعهم حتى التاريخية منها بالشعر لكي يفهمها من لا يعرفون اللغة اللاتينية ولما كان المجتمع الأوروبى يعاني من إنتشار الأمية ، فإن أغاني الشعراء الشعبيين كانت هى الوسيلة التى من خلالها تنشر الأفكار والمعلومات.

Abstract:

This study sheds light on the motives that led the Crusaders to compose religious songs and hymns. These motives varied, including political, military, and religious motives. Political motives were at the forefront of the Crusaders' motivations for composing songs and hymns. The Crusades had a literary influence, as some poets drew inspiration from them in their writings, leading to a flourishing of epic poetry that surpassed other literary genres among Europeans. As for military motives, the Crusaders were convinced that God had chosen them from among all humankind for the mission they had undertaken. Songs and hymns were sung during battle to motivate soldiers to fight and boost their morale. Among these were the French epics known as "the exploits." These hymns spread throughout medieval Western society, particularly during the Crusades, and were popular and widely read among all races, classes, sects, and classes. Poems praising the heroes of the French campaign tended to reference their generosity as shepherds, as well as their military exploits. As for religious motivations, European society was deeply religious, and religion played a central role in almost every aspect of life. Every activity, whether individual or societal, was bound to be linked to religion in one way or another. Religious motivation was the primary motivation for the Crusades, to save Christ and the Holy Land from Muslim control. Songs and hymns came to represent these meanings, including the songs and hymns that lifted the morale of Crusader pilgrims traveling to the Holy Land. Series of heroic tales and poems were circulated along the various trade routes and pilgrim paths in Europe. Poetry was one of the most important means of disseminating Crusader ideology. Poets would write all their topics, even historical ones, in verse so that those who did not know Latin could understand them. Since European society suffered from widespread illiteracy, the songs of popular poets were the means through which ideas and information were disseminated.

أولاً– الدوافع السياسية:

تأتي الدوافع السياسية فى مقدمة دوافع الصليبيين لنظم الأغانى والأناشيد فقد كانت الحروب الصليبية لها تأثيرها الأدبى ، حيث أستوحاها بعض الشعراء فى كتابتهم مما أدى إلى ازدهار الشعر الملحمى بحيث فاق غيره من المجالات الأدبية عند الأوروبيين ، وهناك بعض الشخصيات الصليبية أمثال جودفرى وتانكرد وبلدوين الأول أُخذت موضوعات قصص للشعراء الجوّالين الذين كانوا ينتقلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والأمراء ، كما أن هناك قصائد جديدة عديدة تم نظمها مثل قصيدة أنطاكية Chansond Antioche التى يُشكل موضوعها (حصار أنطاكية) الموضوع الرئيسى فيها وهى عمل من المرجح أن يكون قد دوّنه أحد شهود العيان ، وربما كان واحداً من الشعراء الجوالين فى جيش بوهيمند ، هذه الأنشودة عبارة عن تسجيل حىّ للأحداث ، وهى بذلك ليست عملاً خيالياً ، كما أنها أنشودة ذات طابع شعبى ، أى أنها تمت كتابتها من أجل الجموع العريضة من الإفرنج ، كما تحولت قصة الحروب الصليبية إلى أسطورة تمثلت فى أنشودة الضعفاء أو الحُقَراء chanson de Chetif سنة ١١٣٠م[١].

هذا ، وقد انتشرت الشكوك فى شرعية الحملات الصليبية نفسها انتشاراً واسعاً جداً فى أوساط الفرسان ، فقد كانت الأفكار التى بنت البابوية على الوعظ بها فى غضون أكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بأفعالها الصليبية ، وقد تعرضت مذ ذاك لنقد ماحق ، بل إن بعض الفرسان ذهب إلى حد الإعراب عن فكرة مفادها أنه المشكوك فيه على العموم أن يكون من العدل قتل ذوى الأديان الأخرى لمجرد أنهم وثنيون ، وهذا الضرب من الشكوك أعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الألمانى "فولفرام فون ايشينباخ" فتى إحدى قصائده،

ونظراً لتدفق "موجة النقد" اضطرت البابوية إلى أخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية ، ففى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى كتب الكاردينال "أومبرتو دى رومانو" ، بتكليف من الكرسى الرسولى ، مؤلفاً ضخماً بثلاثة أجزاء خصيصاً لأجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية ، ولكن أومبرو دى رومانو وغيره من أصوب اللاهوتيين تفكيراً فى القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى ، وكانوا يعتبرون أن الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى ، ولذا رأوا من الضرورى أن

(١) أدريان بوس : مدينة القدس زمن الحروب الصليبية . ترجمة /على السيد على ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م . ص ١٣ – ١٤.

يقترحوا إصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تُستّغل شعارتها فى أهداف "غريبة"(١).

هذا ، ومن المعروف أيضاً أن الحملات الصليبية جاء برفقتها العديد من الشعراء الغنائيين المعروفين بشعراء التروبادور ، وما اقترنت به الحروب الصليبية من أحداث رائعة مثيرة أعطت فيضاً غزيراً لهؤلاء الشعراء فلم يلبث جودفرى اللورين (ت١١٠٠م) أن صار بطلاً أسطورياً ذكرت مغامراته في قصيدة Chevalier au Cygne غير أنها كانت متداولة في الشرق حينما ألّف وليم الصورى تاريخه إلا أنه جرى قرضها في الغرب ، وشبيه بذلك القصيدتان المنظومتان عن الحملة الصليبية الأولى وهما أنشودة إنطاكية وأنشودة بيت المقدس إذ جرى تأليفهما في الغرب على أساس ما نقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات : أما الملحمة الوحيدة التى أُلفت في الشرق فهى أنشودة الحُقَراء (الأدنياء) Chanson dea Chetifs التى تتعلق بحصار إنطاكية عام ١٠٩٨م ، وتروى قصة مدهشة عن الصليبيين الذين وقعوا فى أسر كربوغا ، ومن أولئك الذين نظّموا الشعر ولم ينشأوا فى الشرق الفرنجى "فيليب النوفارى" السياسى والمؤرخ والمُشّرع الذى نظّم بالفرنسية فى الشرق "فليب نانتيل" الذى أُسر فى القاهرة ونظّم قصائد عن وطنه فرنسا عبرت عن أحاسيسه ومشاعره المكبوته فى الأسر وحنينة إلى وطنه (٢).

ولقد تم توظيف الأغانى والأناشيد حسب ماكان يراه الشاعر فقد أستخدمت أستخداماً جيداً فكانت هناك عدة أغانى وأناشيد تُجسد الصورة النمطية للمسلمين ، وتبين الأثر الذي تركته في الوجدان المسيحي ، فهناك عدة شعراء كانوا يقودون الحملات الصليبية(٣) ، من ذلك أغانٍ ألفها أمثال ثيبو الرابع أمير شمبانى وفولكية أسقف تولوز زمن الحملة الصليبية الألبيجنسية(٤) (وهى الحملة التى دعت إليها البابوية ضد نبلاء الجنوب الفرنسى الذين أعتنقوا مذهباً كنسياً يعارض هيمنة رجال الكنيسة الكاثوليكية على الناس فى غرب أوروبا)(٥).

وتطور الأمر أكثر من ذلك فكان كثيراً ما يحض الشعراء البارونات ، أو الملوك علي أخذ الصليب ، وعلى الإنطلاق به وأن يفعلوا أكثر مما فعلوا فيتحدث (جوسليم فديت) في قصيدة:

---

(١) ميخائيل زابروف: الصليبيون فى الشرق . ترجمة/ إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو١٩٨٦م . ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) محمود محمد حويرى : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٧م . ص٢٢٧.

(٣) جوناثان ريلي سميث : تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ترجمة / قاسم عبدة قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م . ص١٤٣.

(٤) جوناثان ريلي سميث: تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة / قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م . جـ١ص١٧٩ .

(٥) قاسم عبدة قاسم : ماهية الحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣م . ص٣٨.

(tanl sui ferms efis vas A mor ١١٨٨١٩)

عن الخزى الذى ينبغى أن يعانية الجميع لأن الجنس الذى لايؤمن بالرب وبهيبته في ذلك المكان الذى شهد معاناته وموته (حسب إعتقادهم) ينبغى على الكل أن يفكر فى الذهاب إلى هناك وعلى رأسهم الأمراء بحكم مكانتهم السامية ، لأنه ليس هناك واحد يمكن أن يزعم أنه مؤمن ومطيع للرب ، إذ لم يساعده فى هذا المشروع العظيم[١].

كما كتب أيضاً غافودان (Gavaudan) عندما خاطب الحكام ونبههم إلى أن المعاصى التى أرتكبوها هى التى مكنت العرب وصلاح الدين الأيوبى من الاستيلاء على القدس فيقول :

أيها الأسياد بخطيئاتنا

عظمت قوة العرب

لقد استولى صلاح الدين على القدس

ولم نسترجعها بعد[٢].

وكانت هناك أغراض متعدده للأغانى في الحملات الصليبية ، فمن وجهة نظر الشاعر – المؤدى ، كانت الحملات الصليبية تقدم المادة للأغانى الأخلاقية "Sirventes" وهى موضوع معادل ومصدر للتنوعات حول موضوع حب البلاط ، ومجال للاستعارات وأبنية الفكر ، ومن وجهة نظر السامعين – لأننا يجب ألا ننسى أن هذه الأغانى كانت تُكتب بقصد أن تؤدى بشكل تمثيلى – وكانت هذه الأغانى تُقدّم بطرق مستساغة قاصرة على الوسط الذى تؤدى فيه ، وعلى المذهب والإعلام والدعاية التى كانت تتم على أيدى المُبشّرين الكنسيين أو القسساوسة ، وفى الوقت نفسه ، كانت الأغانى تُعزز صورة السامعين عن أنفسهم وتُظهر زيف أن الحملة الصليبية نفسها كان يمكن أن تؤكد امتلاكهم لفضائل النبلاء ، وحيازتهم لنماذج يحاكونها ويستلهمون منها روح التضامن ، ولكن الأغانى كان يمكن أن تُعبّر أيضاً عن قلقهم وشكوكهم إذا ما ساءت الأحوال ، وعن احتجاجاتهم ضد الظلم ، أو ضد إساءة استخدام مشروع الرب[٣] ، وكان ريتشارد كونت بواتو (وهو ملك إنجلترا) أحد أوائل الذين أخذوا الصليب بعد معركة حطين ، ربما بالفعل قد تم التعرف على سيرة ريتشارد فيما يتعلق بالحملة الصليبية من خلال أغانى التروبادور وقصيدتة التى تحمل عنوان ja" nus om

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـــــــــ١ ص٢٠١.

(٢) محمد عباسة : الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها فى شعر التروبادور . دار أم الكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م . ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٣) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص٢٠٦-٢٠٧ .

"pris ne dira sa raison ليست أغنية صليبية بالضبط ولكنها مكتوبة بإعتبارها صادرة من سجنه في فيينا ولا يستطيع أى رجل مسجون أن يُفصح عما بذهنه سوى بالأسف ، وقد كان يواسى نفسه ، ربما كتب أغنية " لى من الأصدقاء كثرة لكن عطاياهم فقيرة ، سيلحقهم الخزى ، إذا مابقيت سجيناً بسبب فديتى ، على مدى شتائين في هذا المكان" " ولا عجب أن يغص قلبى بالحزن عندما يجثم سيدى الأعلى على أرضى ، وإذا كان الآن واعاً للقسم الذى أقسمناه سوياً ، فأنا أعرف يقيناً أننى لن أبقى سجيناً "

وسيده الأعلى هو فليب الثانى ملك فرنسا الذى انتهز فرصة سجن ريتشارد لكى يقوم بغزو نورماندى على الرغم من القسم الذى كان قد أقسماه فى ديسمبر سنة ١١٩٠م، بأن يحمى كل منهما الآخر طول فترة الحملة الصليبية[١].

كان الشعراء ورعاتهم على صلة بالأحداث بيد أن هناك أسباباً أخرى للدور الذى لعبه الصليبيون فى شعر البلاط فى تلك الفترة ، ولا عجب أنه يبالغ فى مديح القيم والفضائل التى كانت الأرستقراطية تدعمها ، وهى الفضائل التى كانوا يشعرون أنها تميزهم عن أبناء الطبقات الأخرى ، وغالباً ما يعبر الشعراء عن الحملة الصليبية بمصطلحات تعبر عن الواجبات الإقطاعية وينظرون إلى الأرض المقدسة على أنها أملاك الرب الحقة ، التى اغتصبها الناهبون ، ومن ثّم يجب على أفصاله (أتباعه الإقطاعيين) أن يبذلوا مابوسعهم لكى يعيدوها إليه فإذا أخفقوا فى القيام بهذا ، فإنهم بذلك لايقومون بواجبهم الإقطاعى " يجب حقاً إدانة ذلك الذى يتخلى عن سيده فى ساعة الحاجة "[٢].

كانت الأغانى والأناشيد كثيراً ما تستخدم للدوافع السياسية بشكل مباشر فمن ذلك ، عندما تولى جودفرى ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، قاموا بنظم أغانى خاصة بهذا الحدث منها:

وفى سنة الألف ومائة ينقصها واحد
من المولد العذرى للرب المجيد،
عندما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
احتل الفرنجة بعزيمتهم مدينة القدس
وسرعان ما جعلوا جودفرى أميراً على بلاد آبائهم[٣].

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص ٢٠١ -٢٠٥.
(٢) المرجع السابق : جـ١ص١٨١ -١٨٢.
(٣) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس . ترجمة/ زياد العسلي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولي ١٩٩٠م. ص٧٦-٧٧.

وتم استخدام الأغانى والأناشيد فى التوجيهات السياسية ربما لأغراض داخلية لدى الشاعر نفسه . فهناك الشاعر الألمانى "فرايدانك" الذى اشترك فى حملة فريدريك الثانى على فلسطين انتقد الحملات الصليبية انتقاداً حاداً ، فلم ير أى مبرر لمصرع آلاف الصليبيين من أجل عكا ، ومن حيث الجوهر لم يأبه أحداً لموتهم ، فيقول : " فى مكان آخر يبكون على موت الحمار أكثر بكثير "

كذلك يُعرب الشاعر المغنى الجوال البافارى "نايدهارت فون روينتال" عن خيبة أمل عميقة مما عاشه فى الشرق كما يعرب عن الفرح العاصف لكونه عاد أخيراً على الوضع المألوف إلى البيت ، وقد اشتدت مشاعر المرارة والأسى نحو أواخر القرن الثالث عشر عندما تحول إخفاق الحملات الصليبية إلى واقع ثابت كان يستحيل التغاضى عنه ، كما كان يستحيل عدم إمعان الفكر فيه " آن لى أن أضع حداً للأغانى " بهذه الأبيات (التى تعود إلى سنة ١٢٩٢م) أعرب "غيراوت ريكيير" عن خيبة أمله فى آمال الحملات الصليبية المشؤوم :

آنت ساعتنا

عسكراً بعد عسكر

لنغادر الأرض المقدسة(١).

وهناك قصيدة للشاعر "وليم رليف" فى التنديد بالفكرة الصليبية نفسها ، فى لهجة ساخرة تهكُّمية لاذعة يوجه الشاعر حديثه إلى البابا والجهاز الكنسى وإلى أهل الغرب بعامة فيقول :

" لقد أصبح بوسع أى فرد الاتصال بالله وهو آمن مطمئن فى هذه البلاد دون المخاطرة بحياته وأرى أن الشخص الذى يضع نفسه تحت رحمة الآخرين هو أحمق غبى و طالما كان بوسعه الحصول على رضاء الله وهو فى وطنهلم أخطئ بقولى هذا و ولم يتذمر منى أحد .. إنى ذاهب إلى فراشى مبكراً وأنام هنيئاً ملئ جفونى وأكن لأصدقائى ومعارفى الحب والود .. وبودى أن أعيش بين ظهرانيهم فأحصل على المتعة والعزاء ..

ألا فأخبروا سيدكم السلطان أنه لاتعنينى تهديداته .. وستكون العاقبة أسوأ إذا حّل بأرضنا .. ولكنى لن أتعقبه خارج دريانا فليتعظ الأمراء المتوجون ، الأساقفة ورؤساؤهم العظام .. وليمحو الكهنة والأساقفة العار الذى لحق بالله فهو الذى يهبهم أرزاقهم . . ولديهم الشئ الوفير من الطعام والشراب . . فإذا أمكنهم الاتصال بالله من هذا السبيل فمن الحماقة عنه لأنه

(١) ميخائيل زابروف : الصليبيون فى الشرق . ص٣٠٨.

أفضل السُّبل وهناك من يقول : " لتورع ياسيد ماتملك على رعاياك .. وهذا لعمرى رأى سديد .. ولكنى أعتقد ، بحق القديس بطرس الرومانى ، أنه من الأفضل لى البقاء هنا "(١).

وإذا ما انتقلنا إلى أسبانيا فقد كانت بدايات حرب الاسترداد فى إسبانيا تؤلف نوعاً من مقدمات الحروب الصليبية فى المشرق العربى ، وعودة النزاع ضد المسلمين فيتضح فى إسبانيا كما كان فى إيطاليا ، بظرف سياسى جديد ، زوال الخلافة والمنافسات بين ملوك الطوائف قدمت لمسيحى الشمال إمكان استغلال هذه الحالة لصالحهم (٢).

وتحث أغانى "ماركابور اللافادور" على شن الحملات الصليبية إلى أسبانيا بدلاً من الشرق وموضوع المزاعم التنافسية لكل من الحملة الصليبية الإسبانية الشرقية يتجلى فى أغنية "جافودان" التى تتوسل إلى الإمبراطور فليب الثانى ملك فرنسا ونبلائه وإلى ريتشارد الأول ملك إنجلترا لمساعدة أسبانيا ، فالخلاص يعتمد على الطريق القويم " إن يسوع المسيح الذى بشّرنا بأن نهايتنا يمكن أن تكون نهاية طيبة يرشدنا إلى الطريق القويم "(٣).

ومن جانب آخر فإن الشعر "الأوكسيتانى" قد أدى دوراً لا يستهان به فى تهدئة النزاعات التى مافتئت تنشب بين أمراء الفرنجة أنفسهم أو بين الأمراء الأسبان، فإن الشاعر يحاول لمّ شمل هؤلاء الأمراء وتحريضهم على محاربة المسلمين أينما وجدوا ، من ذلك قول "ماركبر" من قصيدة يحذر فيها حكام أسبانيا المسيحية من نزاعهم الداخلى الذى شجع زحف المرابطين عليهم وهو يحرضهم على محاربة المسلمين:

AbL la valor de Portugal
E del rei Navar atretal
Ab sol que Barcalona s vir
Ves Toleta l emperial
Segur poirem cridar : "Reial !"
E paiana gen desconfir
Si non fosson tant gran li riu
Als AIs Almoravis for' esquiu:
E pogram lor o ben plevir

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى. دار النهضة العربية القاهره١٩٨١م . ص ٣٣٦-٣٣٧.
(٢) نورالدين حطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة . دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م . جـــــ٢ ص٢١٧.
(٣) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص٢٠٠.

E s' atendon lo recaliu
E de Castella l seignoriu
Cordoa il farem magrezir

وترجمتها:

بمساعدة من البرتغال
وكذلك ملك نافار
يمكننا الزحف على الأعداء
وبلوغ أسوار طليطلة
تحت صياح "المملكة"
إذا تحالف معنا كونت برشلونة
لو لم تفض الأنهار
لقضى المرابطون وقتا سيئاً
ولو انتظروا عودة الصيف
ووصول ملك قشتالة لينضم إلينا
حينئذ ، سيكون ممكنا جدا
إرغام القرطبيين على شد الحزام(١).

وعلى الجملة كانت الدوافع السياسية من أهم دوافع الصليبيين لتأليف الأغانى والأناشيد الدينية ، وتم توظيفها لخدمة الحركة الصليبية فى المقام الأول .

ثانيًا- الدوافع العسكرية:

كما كان هناك دوافع سياسية للأغانى والأناشيد كان هناك أيضاً دوافع عسكرية، فلقد كان الصليبيون مقتنعون بأن الله اختارهم من بين كل البشر بالمهمة التى أخذوا على عاتقهم تنفيذها فقالوا : " من الواضح أن الله هو الذى اختاركم وحفظكم من كل سوء ، وأنعم عليكم بفتح هذه المدينة والمدن الأخرى ، ولم يكن ذلك نتيجة لما أوتيتم من قوة ، وغنما لغضب الله على العاصين وعقاباً لهم ، وفتح لكم الأبواب ، وانتصرتم فى المعارك الضاربة ، لأن الرب هو القائد والسيد"(٢).

(١) محمد عباسة : الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها فى شعر التروبادور. ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) سميث : الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية . ترجمة / محمد فتحي الشاعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية١٩٩٩م . ص٢٠٣.

فكانت تُنشد الأغانى والأناشيد للدوافع العسكرية فى المعارك لتحميس الجنود على القتال ورفع الروح المعنوية لهم ، من ذلك أنشودة أنطاكية وهي قصة حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨م ، وتحكي أنشودة الحملة الصليبية ، ومنها أيضاً الملاحم الفرنسية المعروفة بالمآثر[١] ، وقد انتشر هذا النوع من الأغانى والأناشيد فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبصفة خاصة فترة الحروب الصليبية ، ولقى الشيوع والرواج من كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات ، وهو ما يعرف بأسم " أغانى المآثر " " chansons de Geste"[٢] ، وتعني المآثر التي بطل أو مجموعة أو عشيرة " ، ومنها أنشودة رولان القديمة الشهيرة ، وهي تُجسّد حدثاً تاريخياً حقيقياً " على الرغم من أن الشك يحوم حول تفاصيلها.

وتميل القصائد التى تمدح أبطال الحملة الفرنسية إلى الإشارة إلى كرمهم كرعاة ، وكذلك إلى مآثرهم الحربية وثمّة جدل خيالى بين الرب والراهب الذى تحول إلى شاعر تروبادور ، راهب مونتودو ، ويسأل الرب الراهب لماذا أخفق في مساعدة الملك ريتشارد ؟

"أيها الراهب ، لقد أخطأت بعدم الذهاب بسرعة قدر الإمكان للملك الذى يمسك أوليرون الذى كان صديقاً خيراً لك ، وهو الذى أظن أنه كان على حق لينهى صداقته معك ، أوه ! كم خسر من النقود في هداياه لك ! لأنه كان هو الذى رفعك من الطين ربى ، لقد كنت سأذهب إليه فعلاً لولا غلطتك أنت : لأنك سمحت بأن يسجن ولكن سفينة المسلمين – وهل نسيت كيف تُبحر ؟ إلى عكا فسيكون هناك الكثير من الأتراك الأشرار، إن الأحمق هو الذى يدخل في جدال معك".

والإشارة هنا إلى سجن ريتشارد على يد "ليوبولد" حاكم النمسا أثناء عودته من عكا في سنة ١١٩٢م[٣].

كان هناك عدة شعراء كانوا يقودون الحملات الصليبية ، فهناك أغان ألّفها أمثال "ثيو الرابع" أمير شمبانى ، وفولكيه أسقف تولوز زمن الحملة الصليبية الألبيجنسية ، وأخرى كتبها أعيان بارزون مثل كونون البثونى وجاى الكوس ، وعلاوة على ذلك ، كان كثير من الشعراء يعتمدون فى معيشتهم ، بصورة جزئية على الأقل، على حماية الصليبيين البارزين ورعايتهم ، فشاعر التروبادور ريمبو دى فاكيراس ، مثلاً أرسل "خطاب – أغنية " إلى بونيفاس المونتفراتى ، يذكر راعيه بلطفه فى الماضى :

---

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص ١٤١.

(٢) جوزيف نسم يوسف : أنشودة رولان قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش. مجلة عالم الفكر، مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام فى الكويت ، المجلد السادس ، العدد الأول ، أبريل مايو يونيو ١٩٨٥م . ص١٣٥-١٣٦.

(٣) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص ١٧٩- ١٨٠.

" إننى أحمد الرب أنه ساعدنى بالقدر الذى وجدت فيك سيداً خيراً ، ربيتنى بهذا القدر من النبل وأعطيتنى السلاح وأسديت لى خيراً جزيلاً ورفعتنى من أسفل إلى الأعلى ومن النكرة صنعت منى فارساً ذا قدر ، يتم استقباله فى البلاط وتمتدحه السيدات ,Valen Marques Senher de Montforrat II ١٠-٥ " ، ويستطرد ريمبو ليتذكر كيف أنه حارب مع بونيفاس فى حصار القسطنطينية ولكنه يذكر راعيه أنك لايمكن أن تعيش على الذكريات :

" معك حاصرت الكثير من القلاع القوية ، وكثيراً من الحصون المنيعة ، وكثيراً من القصور الغنية التى يمتلكها الإمبراطور ، أو ملك أو أمير ، ولاسكاريس والبروتوستوار المحاصر فى بتريون ، وغيرهم كثير من الأقوياء ، معك طاردت إمبراطور رومانيا ، الذى خلعته عن العرش وتوّجت غيره بدلاً منه ، ولكن إذا لم تكافئنى بسخاء ، فسوف يبدو وكأنى لم أكن أبداً معك بقدر ما حاولت أن أذكرك ، وأنت تعرف ياسيدى الماركيز أننى أقول الحق"(١).

أفاض الصليبيون القدامى كذلك فى التباهى والتفاخر بالمذابح المروعة للمسلمين ، ونجد ذلك على سبيل المثال فيما يسمى بأغانى أنطاكية ، وهى أشعار عاميّة وضعها ريشار وعزيبسدور وهما شاركا فى الحرب ، كذلك ما جاء فى كتاب القسيس فوشيه دى شارتر الذى رافق الحملة الصليبية الأولى ، وقد نُشر كتابه عام ١٦١١م، كتاب القسيس ريموند دى جيل الذى نُشر عام ١٨٦٦م(٢).

وكما كان للمحارب أن يصبح جديراً بمكانته ، كان عليه أن يتطلع إلى مهنة تجعل منه جندياً من جنود المسيح ، وفى إطار هذه المهمة والوظيفة الجديدة للفارس، كانت المزايا التى يتمتع بها المحارب الجرمانى من فنون الحرب والشجاعة فى ساحات الوغى والإخلاص تتفق تماماً مع تعاليم الإنجيل التى تحث على الدفاع عن الضعيف والمظلوم والذود عن حياض الكنيسة ، لقد ولدت فكرة الفروسية المسيحية ، حيث كان طقس الإحتفال القديم المصاحب لتدشين الفارس عبارة عن منح هذا الفارس الأسلحة التى يستخدمها فى الحرب ، ولكن بعد ذلك أصبح الإحتفال بتدشين الفارس يتم فى رحاب الكنيسة وكانت أداء صلوات المساء فى الكنيسة تصاحب عملية إعداد وتدشن حامل دروع الفارسSqure الصغيرة وتجهيزه لمسئولياته الكبيرة ، وكان أحد القساوسة يبارك الأسلحة التى يستلمها هذا الفتى الصغير الذى سيصبح فارساً ، ويعلن أنه قد أسبغ بركته الخاصة على هذا الفارس المُرتقب ،

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص ١٧٩- ١٨٠.

(٢) تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . الدار العربية للكتاب ، بيروت ، لم تذكر سنة الطبع . هامش ص٧٩.

وأصبح الطقس المصاحب لتدشين الفارس بمثابة التعميد الثانى للنبيل البالغ الذى شبّ عن الطوق[١]. وكان يتم تذكر الفرسان بمهارتهم فى استخدام السلاح وبالدين الذى يدينون به للمسيح من خلال الأشعار:

" اعتبروا جيداً أيها الفرسان ، أنتم يا من تحظون بالتقدير بسبب مهارتكم فى استخدام السلاح ، أعطوا أجسادكم هبة للذى وضع على الصليب من أجلكم " ويتم استخدام لويس السابع مثالاً : فيتم تصويره ينبذ السلطة والأراضى مثل رجل يتخلى عن العالم لكى يعيش حياة القديسين ، ويتم تذكر جراح المسيح ومعاناته ، وليست هذه تذكرة دينية : إنما مقصودة إلهاب رغبة السامعين للأخذ بالثأر من أعداء الرب الذين حق عليهم الإنتقام[٢].

وعندما أُسر جوسلين كونت الرها ومعه قريبه جاليران ، وقُتل من رجال جوسلين ما لا يقل عن مائة رجل ، وقد وقعوا فى كمين ماكر أعده لهم أمير عربى يدعى بُلك قال الشاعر :

أنتهت هذه السنة بالوفرة مثل سابقتها
فى المحصولات من كل نوع ، من كل
نبت فى الحقول
وكان حمل القمح يباع بدينار
أو أربعين حملاً مقابل قطعة ذهبية
وفى ذلك الوقت لم تشن بارثيا أو مصر أى حرب[٣].

وكان لإسبانيا أبطال من أبنائها ، ولدوا على أرض أسبانية وحاربوا من أجل وطنهم، وقد ورد ذكر هؤلاء فى المدونات التاريخية القديمة وفى عدد لا يحصى من الملاحم الشعرية ، فهناك ما يربو على مائتى ملحمة تُشيد بالأعمال البطولية – الحقيقية والخيالية – التى تُنسب إلى " السيد " (Cid) الذى يعتبر بطل إسبانيا القومية فى العصور الوسطى ، ويحتل المكانة التى يحتلها رولان فى فرنسا ، " والسيد " هو اللقب العربى الذى أُطلق على روى (Ruy Diaz) الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان محارباً معتزاً بنفسه كثير المفاخرة ، وصورته الملاحم على أنه فارس كريم كرّس نفسة للدفاع عن المسيحية ، وأنه البطل الرهيب الذى كان يُلقى الذُّعر فى نفوس المسلمين ، فلا غرو أن تؤهله هذه الصفات ليكون بطلا شعبياً، ومما يروى عنه أنه البطل الذى كانت لديه الجُرأة على أن يجادل الملك ،

(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين(مملكة بيت المقدس اللاتينية) . ترجمة/ عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة، الطبعة الأولي ٢٠٠١م . ص١٦.
(٢) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص١٨٣.
(٣) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس . ترجمة/ زياد العسلي ، دار الشروق ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولي ١٩٩٠م . ص ٢٥٠.

وأنه غار على فرنسا وتحدى إمبراطورها ، كما ذهب إلى إيطاليا وأهان البابا ، بالإضافة إلى الملحمة ، فقد نُظّمت قصيدة طويلة كُتبت بعد وفاة البطل بنحو خمسين سنة ، وتهز القصيدة مشاعر قارئها بما فيها من حركة وحياة ، وفيها تُوصف مغامرات " السيد " على نحو معقول محتمل الحدوث ، كما ترد بها أسماء لأماكن حقيقية وأشخاص حقيقيين وأوصاف لمعارك تاريخية(١) وقد خلط الشاعر بين الحقائق التاريخية وعدد من الأساطير والمآثور الشعبية، فهو لايكتفى بتصوير " السيد" فى صورة الملك الشجاع الكامل ، ولكنه يجعل منه مسيحياً تقياً كّرس حياته للقتال ضد أعداء المسيح(٢).

وفى قصيدة ترجع إلى سنة ١٢٧٠م عنوانها on his poverty كتبها الشاعر الباريسى روتيبيف : " إن الموت قد سبب لى خسارة كبيرة وأنت أيضاً ، أيها الملك الطيب فى رحلتين ، فقد انتزع أُناساً صالحين عنى ، كما فعل الحج إلى تونس البعيدة ، وهو مكان همجى ، وكذلك فعل الناس الأشرار الذين لا رب لهم " وهنا يشكو روتيبيف من حملة لويس التاسع الصليبية(٣).

ولقد بذل الشعراء جهوداً كبيرة فى سبيل تأكيد مصداقية حكاياتهم ، وطوقوا هذه الحكايات وأحاطوها بشئ يشبه الأجواء البطولية المثيره(٤).

لما قام شارلمان فى أواخر القرن الثامن الميلادى بحروب ضد المسلمين ، هناك حرصت أنشودة رولان فى أواخر القرن الحادى عشر على إكسابها طابعاً صليبياً ، وتغنت فى نفس الوقت بعظمة شارلمان وبطولتة فى الحرب ضد العرب فى أسبانيا ، وبسالة رجاله ومُثُلهم العليا التى تتبلور حول الدين والحرب(٥). ولقد ظلت أنشودة رولان تمثل أحد الروافد المختزنة فى العقل الجمعى الأوروبى فى العصر الوسيط ، بل كانت ضمن الأناشيد الحماسية التى تغنى بها الصليبيون فيما بعد فى الحملة الصليبية الأولى ، أثناء عبورهم المسافات الشاسعة من الغرب الأوروبى حتى بلاد الشام(٦). نجحت الحرب الصليبية الألبيجنسية فى إقصاء الهرطقة ، وبمرور الأيام فإنها أثارت قرائح الشعراء الملهمين من التروبادور فى بروفانس(٧).

(١) دوروثي لودر: أسبانيا شعبها وأرضها . ترجمة / طارق فودة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع. ص٦٤.

(٢) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط . ترجمة / قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٧م . جـــــــ٢ هامش ص ٤٧٨.

(٣) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص ١٨١.

(٤) أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد . ترجمة / سهيل زكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ للحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٨م . مقدمة التحقيق جـــــــ٣٢ ص٨.

(٥) محمد موسى الشيخ : عصر الحروب الصليبية . ص٥٨.

(٦) محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب . عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م. ص٣١-٣٢.

(٧) موريس بيشوب : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة / على السيد على ، المجلس الأعلى للثقافة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م . ص٢٠١.

وكان خاطر الرحلة أحد الجوانب التى يتردد ذكرها أكثر من غيرها فى أغانى الحركة الصليبية ، وهو أمر لا يبدو مدهشاً عندما يتذكر المرء أن أول شعراء التروبادور المعروفين ، هو وليم التاسع أمير أقطانيا ، قد خسر جميع رجاله تقريباً فى الطريق إلى الأرض المقدسة كما يحتفل بوسليم فيديت ، الذى شارك فى الحملة الصليبية الثالثة بعودته من الحملة سالماً فى الأغنية التى وضع عنوانها Del gran golf de mar وهو لا يلقى بالاً للرحلة ، إنما يفرح بعودته إلى المحيط الذى يألفه، فقد كانت الرحلة البحرية خاصة هى سبب وجيعته ، " ليس علىّ إلا أن أخاف الرياح من الشمال أو الجنوب أو الغرب لأن سفينتى كفت عن التأرجح والتمايل ، كما أننى لم أعد أخشى السفن السريعة أو سفن القرصنة " ومع أنه يعترف بجدارة الصليبيين فإنه يستهجن الحقيقة القائلة بإن البعض لايركبون البحر سوى من أجل النهب والقرصة والقرصنة " . إن أى رجل يمر بمثل هذه المتاعب لكى يكسب الرب أو لكى ينقذ روحه إنه يفعل الصواب وليس الخطأ ، ولكن من يركب البحر حيث يعانى المرء مثل هذه المُنغّصات لكى ينهب وبنية شريرة وهو مايحدث غالباً ، وعندما يظن أنه فى الأعالى يكون فى طريق السقوط وبحيث يجعله اليأس يتخلى عن كل شئ ويُلقى به بعيداً عن الروح والجسد والذهب والفضة " [١].

انتشر هذا النوع من الأناشيد فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبصفة خاصة فى فترة الحروب الصليبية ، ولقى الشيوع والرواج من كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات ، وهو ما يعرف بأغانى المآثر وهى عديدة وقد وضعت خلال القرون : الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الميلادية ، وتدور حول شخصيات رئيسية هى : شارلمان ، وشخصية وليم أورانج وشخصية رينوه منتوباه وان المؤلف فى مثل تلك الأناشيد يستغل بعض الشخصيات أو الأحداث التاريخية ، حيث ينسج حولها قصصاً أسطورية تستهدف تمجيد البطولة فى عصر كان مُهيئاً لقبول مثل هذا النوع من الملاحم[٢].

من ذلك أنشودة رولان والتى تعد من أقدم الملاحم الغنائية الشعبية التى عرفا العصر الأوروبى الوسيط وتدور حوادثها كما هو معروف فى عصر الإمبراطور شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) الذى يتغنى المؤلف بعظمته وبطولته فى حروبه ضد العرب فى إسبانيا ، كما يتعرض لبسالة رجاله فى ميدان القتال ، لتحقيق مثلهم العليا التى تتلخص فى كلمتين اثنتين هما : الدين والحرب فقد كانت تلك الأنشودة تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـــــــ١ ص١٩٧.

(٢) جوزيف نسيم : أنشودة رولان قيمتها التاريخية . ص ١٣٥-١٣٦.

صادقا فى هاتين الناحيتين ، الناحية الأولى أوحت بها منذ البدية الديانة المسيحية التى أصبحت من ألصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة فى ذلك الحين ، أما الحرب فقد كانت صناعة الفارس الأولى يبرز فيها ما تعلمه من فنون القتال وهى تقترن بقيام النظام الاقطاعى وما يلحقه من نُظم كالفروسية ، وعلى هذا فالأنشودة تمثل عقلية العصر الوسيط خير تمثيل(١).

ثالثًا– الدوافع الدينية:

يكاد يجمع كل مؤرخي العصور الوسطى على أن المجتمع الأوربي كان مجتمعاً متديناً حتى النخاع ، وأصبح للدين فيه الدور الأول في كل نواحي الحياة تقريباً ، فكل نشاط على مستوي الفرد أو المجتمع لابد وأن يرتبط بالدين بشكل أو بآخر، كذلك فإن التفسير الديني لكل ظاهرة طبيعية أو شخصية أو طبية كان دائماً الدين الأقرب إلى العقل والقلب في المجتمع الأوروبي(٢) ، لقد كان الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الإطار الذي كان يعيش فيه الإنسان الأوربي(٣) ، وكانت عطلات الأوروبي المسيحي أعياداً دينية ، وألعابه في الملعب تستهل بتراتيل ، وإذا أراد أن يستخير الله في شيء لم يفعل ذلك إلا عن طريق النُسّاك أو طريق الرؤى التي يتمثل فيها القديسون الأموات ، وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ، ويرى في الغبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجح دواء عنده(٤).

في ظل هذا الجو العام الذي عاش فيه الناس في العصور الوسطى فقد شعروا شعورا عميقاً بوطأة الذنوب والخطايا التي اقترفوها في حياتهم الدنيوية فكان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك المشاعر الألفية والأخروية توّاقين لضمان الخلاص من وطأة تلك الذنوب والخطايا(٥).

لقد كان الدين والمعتقدات يمثلان ركناً أساسياً في الحياة اليومية للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، ولم يقتصر ذلك على الطبقة الفقيرة الأمُية بحكم منطقية كونها أكثر الطبقات تأثرّاً بهذه المعتقدات ، بل تجاوز هذا التأثير حدود العلم والثقافة والنبالة(٦) ، ويعد الدافع الديني هو الدافع الأساسي للحروب الصليبية لتخليص وإنقاذ

(١) المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٢) الأمين أبو سعدة : الديرية الإجبارية في الدولة البيزنطية . مجلة كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، العدد ٤٣ المجلد الأول أغسطس ٢٠٠٨م . ص٢٣٣.

(٣) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية . ترجمة/ حسين مؤنس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٥٠م. ص٢٢.

(٤) المرجع السابق: ص١٧.

(٥) إمام الشافعي محمد : الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية . مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، العدد (ثلاثون) الجزء الأول ، يونيو ٢٠١١م. ص٥٧٨.

(٦) عبد العزيز رمضان : البيزنطيون بين علاج الأطباء ومعجزات القديسين . مجلة حولية التاريخ الإسلامى والوسيط ، تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الخامس ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧م. ص٦٤.

المسيح وإنقاذ الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين[١] ، وبالتحديد في الحملة الصليبية الأولى فقد تدفق المسيحيون من كل صوب للاشتراك في الحملة التي اصطبغت بصبغة دينية واضحة ألا وهي الحج[*] إلى بيت المقدس وتخليصه من أيدي المسلمين[٢].

وكانت النساء الصليبيات لا تقل حماسة دينية عن الرجال إن لم يزدن ، فكن ينشدن الحج إلى بيت المقدس وزيارة الأماكن المقدسة ، ومنهن من انضمت للحملة الصليبية لخدمة الدافع الديني الذي صار هوساً وعائباً منتشراً بين كل الطبقات ، فمنهنّ من سلكن الرهبنة والالتحاق بخدمة الأديرة عن طريق ما يقدّمن من إسهامات أو من خدمات ، أو إقطاعات ، ووصل الأمر إلى تدخل الملكات والأميرات في الإشراف على الوظائف الكنسية ذات الثقل الديني ، وهناك العديد من النساء الأرامل المتدينات اللاتي قررن النزوح إلى بيت المقدس في بداية القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري لتقبيل المواضع المقدسة في القدس، بل عانت تلك النساء صعوبات جمّة أثناء إقلاعهنّ لتلك الرحلة الدينية ،لكنّهن استمتعن في مواصلتها حتى يصبن الغاية المرجوة وهي الحج[٣].

إن الشعائر الدينية فى كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها فهى تُعلّم الإيمان وتغذّيه، وتوجده فى كثير من الأحيان وهى تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه، وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها وفنها ، بل وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة مؤتلفة حين تقنعهم بالإشتراك فى شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وادعية وصلوات واحدة ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحداً[٤].

وقد أعتقد النصارى أن الملائكة أنفسهم يُغنّون ويمجدون الرب : المجد للرب، والسلام للناس وكان ذلك بحضور الرعاه[٥].

لقد كان أهل العصور الوسطى قوماً متدينين ، وكثيراً كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون فى الخرافات ، وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءاً لايتجزأ من تربيتهم و بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين وكانت التسلية الرئيسية لغالبية الفلاحين تتمثل فى خدمة يوم

---

(١) علية الجنزوري: الحروب الصليبية " المقدمات السياسية ". الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م. ص٢٤٩.

(*) يعتبر الحج المسيحي إلي بيت المقدس من الطقوس المستحدثة ، فليس في صلب الدين المسيحي ما ينص علي وجوب الحج علي المسيحيين ، لذلك فإن مسألة حج الأوروبيين إلي الديار المقدسة في فلسطين ، كان مبعثة خليطاً من ارتباط تاريخي فيما يتعلق بحياة السيد المسيح ، والمكان الذي بعث فيه مع ارتباط روحاني فى قدسية هذه المناطق ، وخصوصا بعد انتشار الكتب الدينية التي أخذت تفيض في وصف المسيح وولادته وأقواله ، ثم اضطهاده وصلبه ، وكل ذلك خلف حالة تَشَوُق لدي المسيحيين لزيارة فلسطين التي شهدت بزوغ فجر المسيحية الأول . تيسير بن موسي: نظرة عربية علي غزوات الإفرنج . ص٥١-٥٢.

(٢) علية الجنزوري: الحروب الصليبية "المقدمات السياسية" . ص٢٥٤.

(٣) سهير مليجي : دور المرأة الصليبية في الحياة الدينية . ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطي . تحرير / محمد مؤنس عوض ، بيروت ٢٠١١م. ص١٣٤.

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة . ترجمة / زكي نجيب محمود وآخرون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة١٩٧٤م. جـــــــ١٦ ص٢١.

(٥) بورشارد : وصف الأرض المقدسة . ترجمة / سهيل زكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق١٩٩٩م . جـــــــ٣٧ ص١٤١-١٤٢.

الأحد الصباحية التى كان يقوم بها قسيس نصف متعلم أو موعظة يلقيها أحد الرهبان الجائلين ، وبلغ من سلطان الدين على هذه الطبقات أن ظهرت فى شمال (نورماندى وبرجندى) مجموعات من التائبين ساعدت فى بناء الكنائس ، وكانت هذه المجموعات تسير فى مواكب تضم الرجال والنساء والأطفال يحملون الشموع والأعلام وينشدون الأغانى والتراتيل الدينية(١)

بل عدنما أسبغ الخيال الشعبى حيويته على مضمون حركة الحج نفسها فى تلك الفترة وشاع إعتقاد بأن أولئك الذين يموتون خلال رحلة الحج شهداء يضمنون دخول الفردوس فى الحال ، كان هناك أغانى صليبية تؤكد هذا المعنى فهناك أغنية صليبية باكرة تقول كلماتها :

إن من يرحل إلى هناك
ليلقى المنيّة
سيفوز بأفراح السماء
ويبقى مع القديسين

وهذا المعنى وارد فى أشعار كثيرة من أشعار الحركة الصليبية(٢).

وقد كان صوت الغناء عند سفر الحجاج إلى الشرق يتعالى أصداؤه وسط ميدان عام وتنتشر موجات من الصخب والضجيج ، ففى مدينة البدقية كان يتم توجيه التحية للحجاج عن طريق رفع أعلام السفن التى تستقل الحجاج إلى الأراضى المقدسة وسط ميدان "سان مارك" المطل على مدخل القناة العظيمة ، وتحت سارية الأعلام والرايات المرفوعة وسط الميدان كان يجلس كاتب السفينة وقادتها وذلك لإغواء وحث المسافرين المتوقع رحيلهم إلى الشرق يعلنون عن المزايا الشخصية والفذة والبارزة لسفينتهم(٣) ، وبعدما تمتلأ السفينة بالركاب كانت تبدأ الرحلة بعد تأدية الصلوات والتراتيل المقدسة وفى بعض الأحيان كانت تبدأ بعد موكب مُقّدس ، وكانت أغنية الحجاج مثل أغنية الألمان في قصص وروايات الأديب الألمانى الشهير "جوته" إذ كانت كلماتها تقول " نحن مسافرون معاً إلى "InGottes Namen Fahren wir وكانت هذه الأغنيات ترفع معنويات الحجاج المسافرين إلى الأراضى المقدسة(٤).

وبصوت مرتفع وبنغمات فرحة ، مزمور الحجاج ، وهو الذى اعتاد المسافرون إلى الضريح المقدس لربنا على غنائه مرددين :

"In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir ;

(١) محمود عبدالغنى : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . تحرير / قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٨٣م . جـــــ٢ ص١٥٥-١٥٦.
(٢) قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٩٩م . ص٣٦.
(٣) يوشع براور : الإستيطان الصليبى فى فلسطين . ص٢٤٠.
(٤) المرجع السابق . ص٢٤٢.

Nurheiff uns die Gottiche kraft, und das heylige grab ; Kyrie Eleyson"

والذى معناه مترجماً عن اللغة اللاتينية :

بإسم الرب نحن الآن مُبحرون
نحن نحتاج إلى نعمته
فلعل قدرته تحمينا
والضريح المقدس يقينا(١).

وقد أخذت سلسلة الأقاصيص البطولية والأشعار تُطرح بالتداول على طول مختلف طرق التجارة ، وسبل الحجاج فى أوروبا(٢) ، وبذل الشعراء جهوداً كبيرة فى سبيل تأكيد مصداقية حكاياتهم ، وطوقوا هذه الحكايات وأحاطوها بشئ يشبه الأجواء البطولية المثيرة ، ومما لا شك فيه أن الشعر كان من أهم وسائل نشر الأيديولوجية الصليبية ، فقد ولدت الحركة الصليبية في زمن كان الشعر العامى قد أزدهر في شمال فرنسا آنذاك ، فقد كان الشعراء ينظمون كافة مواضيعهم حتى التاريخية منها بالشعر لكي يفهمها من لا يعرفون اللغة اللاتينية ولما كان المجتمع الأوروبى يعاني من إنتشار الأمية ، فإن أغاني الشعراء الشعبيين كانت هى الوسيلة التى من خلالها تنشر الأفكار والمعلومات(٣).

كذلك نظر بعض الشعراء إلى الأرض المقدسة على أنها أملاك الرب الحقّة ، التي اغتصبها الناهبون ، وواجب على الصليبيين أن يبذلوا ما بوسعهم لكي يعيدوها إليه ، فإذا أخفقوا في القيام بهذا ، فإنّهم بذلك لا يقومون بواجبهم ، كما في قصيدة شاعر فرنسي مجهول سنة ١١٤٣-١١٤٦م :

أيها الفارس إنّك حقّاً محظوظ
لأن الرب دعاك إلى مساعدته
ضد الأتراك المسلمين الذين ارتكبوا مثل هذه الأمور الفظيعة ضده
فقد استولوا علي ضيعته دون وجه حق
ويجب حقاً أن نأسى لهذا
لأنّه حدث هناك لأول مرة
أن عُبدَ الرب وتم الاعتراف به ربّاً

(١) فليكس فابري : جولات الراهب فليكس فابري ورحلاته . ترجمة / سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر، دمشق ، سوريا ٢٠٠٠م. جـ٣٨ص١٨١.

(٢) أمبرويز : صليبية ريتشارد قلب الأسد . ترجمة / سهيل زكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ للحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٨م. جـ٣٢ ص٨.

(٣) قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . ص ٣٦.

كلّ من وافق لويس الآن
لن يخشى نار الجحيم لأن روحه
ستكون في الفردوس مع ملائكة الرب سيدنا

والقصيدة تدور في مصطلحات عن الواجبات الإقطاعية وهي تصور الرب سيداً إقطاعياً والفرسان في صورة من يدينون له بنوع الحماية التي يدينون بها لسادتهم الإقطاعيون ، والقصيدة تعد بالفردوس لأولئك الذين يرافقون الملك في الحملة الصليبية :

كل من يرافق لويس الآن
لن يخشى نار الجحيم
لأن روحه ستكون فى الفردوس
مع ملائكة سيدنا[١] .

وفى أغنية صليبية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى ضمن المجموعة المعروفة باسم (Carmina Burana)[٢] ، قال أحد الشعراء وهو يحث على الذهاب إلى الأرض المقدسة لقاء الحصول على الغفران :

التاجر الحاذق سيكون هنا
ذلك الذى يريد شراء الحياة
والآخير سيكون الأول
والأول وأخيراً
والأجتماع مختلف
لكن الطريقة ستكون واحدة
لأن كل العاملين أى الصليبيين
سينالون ثمناً هو الحياة[٣].

كما أنه كان لابد من وجود قساوسة في الجيش الصليبيى لإقامة الصلوات والشعائر[٤] ، بل إن الفرسان الصليبيون كانوا على إقتناع تام بأنهم إذا قاموا بالحرب فأنهم ينتظرهم الغفران لجميع خطاياهم من ذلك ماقيل في أغنية صليبية تحث على هذا المعنى :

(١) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص١٨٢.
(٢) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣م . ص٣٦-٣٧.
(٣) مى محمد حسن وفا : الدعاية زمن الحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٨م . ص٨٦.
(٤) سميث : تاريخ الحروب الصليبية . جـ١ص١٠٠.

من فتحوا أقطارا غريبة
بدوافع قضايا مقدسة ،
ينتظرهم فيما وراء القبر
غفران الخطايا

وفي هذه الأبيات ، أعرب فيما بعد عن هذا الإيمان من أحد المشتركين في الحملة الصليبية الرابعة ، وهو التروبادور (الشاعر المغني الجوال)

هاوسل فاديت[1]، ولقد تطرق بعض الشعراء الأوروبيين في أواخر حياتهم إلى نوع من الأستغفار يشبه المكفّر عن شعراء الأندلس ، وذلك كأن ينظم الشاعر قصيدة يتقرب فيها إلى الله وهو نادم على كل ما ارتكبه من إثم في أيام الشباب ، وكان الكونت غيلوم التاسع أول الشعراء الأوكسيتانيين فقد نظم قصيدة في هذا الشأن بعد ما أدركتة الشيخوخة يقول فيها:

Merce quier a mon compaignon
S, anc li fi toet qu, il m o perdon,
Et ieu prec en jesu del tron
Et en romans et en lati…
Mout ai estat cuendes e gais ,
Mas nostre seigner no, lvol mais,
Ar non puesc plus soffrir lo fais,
Tant soi aprochatz de la fi

وترجمتها :

أطلب ممن ارتكبت فى حقه خطأ
أن يسامحنى ، وهو الدعاء نفسه
الذى أتوجه به إلى السيد المسيح
باللهجة اللاتينية على السواء

(١) ميخائيل زابروف: الصليبيون فى الشرق . ص ٢٢٦-٢٢٧.

إلى أن يقول :

كنت مرحاً جداً وسعيداً
لكن الله لا يريد ذلك
والآم لم أستطع تحمل الثقل
بما أننى قريب من النهاية[١]

وفى قصيدة أخرى :

لقد سمعت مثلاً سائرا يقول :
" التاجر العاقل ينفق المال من حافظته
" وصاحب القلب الطائش
"هوالذى يرى الحسن فيختار القبيح "
هل تعرفون بما وعد الرب
أولئك الذين سيأخذون الصليب ؟
إنه لثواب حسن بالتأكيد
الفردوس ، وكان وعده مكافأته
أحمق إذا انتظر إلى الغد[٢].

وكان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة ، وفيما مضى كانوا يذمون أولئك الذين يتذبذبون (أيمضون إلى القدس أم يبقون فى ديارهم؟) والحال أن الشعار المغنى الجوال الألمانى الذى لقى مصرعه فى الحملة الصليبية الثالثة فريدريك فون هاوزن كان قد كتب بازدراء منذ أمد غير بعيد نسبياً عن الفرسان الذين يرفضون بأنانية التضحية بأنفسهم فى الحملات الصليبية فيقول:

إن من يريد أن يصون حياته
لا يأخذ الصليب المقدس

أما هو ، فريدريك فون هاوزن ، فليس هكذا :

مستعد أنا للموت فى القتال
فى القتال من أجل السيد المسيح
جميع من ضميرهم غير نقى

(١) محمد عباسة : الموشحات والأزجال الأندلسية . ص ٣٢٢-٣٢٣.
(٢) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص٣٧.

من يتخفون فى وطنه ،
أبواب الجنة مغلقة أمامهم
أما نحن ، فإن الرب سيستقبلنا فى الجنة(١).

وبعد سقوط بيت المقدس فى الخامس عشر من يونيو ١٠٩٩م ، سار موكب دينى مهيب وكان الجميع حفاة ، وكانوا ينشدون " أنشودة جديدة للرب The Lor " وتحرك الموكب إلى القبر المقدس ، ووصل مسيرته حتى كنيسة القيامة(٢).بل إنه هناك العديد من الأغانى الألمانية التى تحث على الزهد والتقشف ومن أهم هذه النصوص الدينية أنشودة إيزو Ezzo (١٠٦٢م) التى ألفها إيزو وهو أحد رجال الكنيسة فى بامبرج ، وهى تاريخ موجز للعالم يظهر فيه الرب مثل الضوء الذى يخلص البشر من الظلام والموت :

ضوء وسط الظلام
نراه
يعطينا الضوء
لاينسانا أبداً

وفى قصيدة أخرى هى قصيدة " أذكر الموت " لمؤلفها نوكر Noker نجده يطالب الناس بالزهد فى الحياة والتقشف وتذكر الحياة الآخرة ، وتصور أنشودة أخرى (أنشودة أنو) قصة خلق العالم حتى نهاية عهد المسيح وفيها يمجد الأسقف أنو رئيس الأساقفة فى كولونيا بوصفه واحداً من القديسين(٣).

وهناك عدة أغانى كتبت عن السيدة مريم العذراء فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتشمل هذه الأغانى على الكثير من سمات الإيمان الشعبى الذى يمجد السيدة مريم العذراء التى تبدو كأنها الوسيط بين الناس وبين والرب والتى ترفع دعـــــــــــــــــــوات الناس إلى الرب :

سلام عليك أيتها النجمة المضيئة فى البحر
يا نور المسيحية ، يا مريم
يا من يغمر ضوؤك كل العذارى(٤).

(١) ميخائيل زابروف : الصليبيون فى الشرق . ص٣٠٧.
(٢) سميث : الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية . ترجمة / محمد فتحي الشاعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية١٩٩٩م . ص١٥٧.
(٣) باربار باومان : عصور الأدب الألمانى . ترجمة / هبه شريف ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى الثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م . ص٦٣-٦٤.
(٤) باربار باومان : عصور الأدب الألمانى . ص٦٤.

الخاتمة:

هدفت هذه الدراسة إلى بيان الدوافع التي أدت بالصليبيين إلى نظم الأغانى والأنَاشيد الدينية، وقد تعددت هذه الدوافع بين دوافع سياسية، ودوافع عسكرية، ودوافع دينية، وقد تم توظيف الأغانى والأناشيد حسب ما كان يراه الشاعر، فقد استخدمت استخداماً جيداً، فكانت هناك عدة أغانى وأناشيد تُجسد الصورة النمطية للمسلمين، وتبين الأثر الذي تركته في الوجدان المسيحي، وكان هناك عدة شعراء يقودون الحملات الصليبية، من ذلك أغانٍ ألفها أمثال ثيبو الرابع أمير شمبانى وفولكية أسقف تولوز زمن الحملة الصليبية الألبيجنسية، وتطور الأمر أكثر من ذلك، فكان كثيراً ما يحض الشعراء البارونات ، أو الملوك علي أخذ الصليب ، وعلى الإنطلاق به وأن يفعلوا أكثر مما فعلوا، وقد تم استخدام الأغانى والأناشيد فى التوجيهات السياسية ربما لأغراض داخلية لدى الشاعر نفسه، وعموما كانت الأغاني والأناشيد من أهم وسائل نشر الأيديولوجية الصليبية فى العصور الوسطى .

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

أمبرويز : أمبرويز

١- صليبية ريتشارد قلب الأسد . ترجمة / سهيل زكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ للحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٨م .

بورشارد : بورشارد

٢- وصف الأرض المقدسة . ترجمة / سهيل زكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق١٩٩٩م .

زابروف : ميخائيل زابروف

٣- الصليبيون فى الشرق . ترجمة / إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو١٩٨٦م.

الشارتري : فوشيه الشارتري

٤- تاريخ الحملة إلى القدس . ترجمة/ زياد العسلي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولي ١٩٩٠م.

فابري : فليكس فابري

٥- جولات الراهب فليكس فابري ورحلاته . ترجمة / سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر، دمشق ، سوريا ٢٠٠٠م.

ثانياً: المراجع العربية والمترجمة:

براور : يوشع براور

١- الاستيطان الصليبي في فلسطين(مملكة بيت المقدس اللاتينية) . ترجمة/ عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة، الطبعة الأولي ٢٠٠١م .

بوس : أدريان بوس :

٢- مدينة القدس زمن الحروب الصليبية . ترجمة /على السيد على ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م .

بيشوب : موريس بيشوب

٣- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة / على السيد على ، المجلس الأعلى للثقافة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م .

حويرى : محمود محمد حويرى

٤- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٧م .

حطوم : نورالدين حطوم
٥- تاريخ العصر الوسيط فى أوربة . دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
الجنزوري: علية الجنزوري
٦- الحروب الصليبية " المقدمات السياسية ". الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م.
ديورانت : ول ديورانت
٧- قصة الحضارة . ترجمة / زكي نجيب محمود وآخرون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة١٩٧٤م.
سميث : جوناثان ريلي سميث
٨- تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ترجمة / قاسم عبدة قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م .
٩- تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة / قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م .
١٠- الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية . ترجمة / محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية١٩٩٩م .
عباسة : محمد عباسة
١١- الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها فى شعر التروبادور . دار أم الكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١٢م .
عوض : محمد مؤنس عوض
١٢- الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب . عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
قاسم : قاسم عبده قاسم
١٣- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٩٩م .
١٤- ماهية الحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣م .
كانتور : نورمان كانتور
١٥- الإمبراطورية البيزنطية . ترجمة / حسين مؤنس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٥٠م.
١٦- التاريخ الوسيط . ترجمة / قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٧م .

لودر: دوروثي لودر

١٧- أسبانيا شعبها وأرضها . ترجمة / طارق فودة ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لم تذكر سنة الطبع.

مليجي : سهير مليجي

١٨- دور المرأة الصليبية في الحياة الدينية . ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطي . تحرير / محمد مؤنس عوض ، بيروت ٢٠١١م.

موسى : تيسير بن موسى

١٩- نظرة عربية على غزوات الإفرنج . الدار العربية للكتاب ، بيروت ، لم تذكر سنة الطبع .

وفا : مى محمد حسن وفا

٢٠- الدعاية زمن الحروب الصليبية . عين للدراسات والبحوث ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٨م .

يوسف : جوزيف نسيم يوسف

٢١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى. دار النهضة العربية القاهره١٩٨١م .

ثالثا: الدوريات:

١- مجلة كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، العدد ٤٣ المجلد الأول أغسطس ٢٠٠٨م.

٢- مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، العدد (ثلاثون) الجزء الأول ، يونيو ٢٠١١م.

٣- مجلة حولية التاريخ الإسلامى والوسيط ، تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الخامس ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧م.

٤- مجلة عالم الفكر، مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام فى الكويت، المجلد السادس ، العدد الأول ، أبريل مايو يونيو ١٩٨٥م .

٥- عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى الثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م

رابعا: الندوات :

١- ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . تحرير / قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٨٣م.